

# الكتاب

جمادى الأولى ١٣٦٥

المجلد الثاني

مايو ١٩٤٦

السنة الأولى

الجزء السابع

## غريب

تواعدوا على اللقاء في حديقة الحيوان وحديقة الجيوان بالقاهرة جنة عظيمة  
عصامية تزهى بتالدها وتزهو بطارفها وإليهما أشار حافظ إبراهيم حيث يقول :  
كنت بالأمس جنة الحور يا قصير فأصبحت جنة الحيوان \*  
وتعد هذه الحديقة فيما تحويه من غرائب الطير والوحش مبعثرة في أنحاء الواسعة  
وشعابها المخضلة مجموعة في نظام دقيق عجيب آية من آيات مصر يقصدها المقيم ويركب إليها  
النازح ويقضي فيها الزائر برهة من الزمن لا يفتأ يردد فيها بين مشهد ومشهد  
سبحان الخلاق .  
أقبل فيمن أقبل على الحديقة في ذلك اليوم جماعة من أهل مصر وزوارها بيتوا  
العزم على قضاء نهارهم في متعة وأنس ومرح فما هوأن يوافي الموعد المضروب حتى تزدحم  
على باب الحديقة سيارات أنيقة نخمة جاءت معطرة بمن حملت من أحجاب العز والجاه  
والثراء مزهوة بمن تقلت من حسان فيهن الشقر المتمثل في شعرهن لون الذهب  
وفي أعينهن زرقة السماء وفيهن السمر :  
الشارعات الهدب أمثال القنا يحيي الطعين بنظرة ويمتد  
جال الركب في الحديقة متنقلاً من عجب إلى عجب وكانت خيلاء فتية النيل منهم  
وفتياتهن لا تقل عن إعجاب الضيفان بما هنالك من بدائع لا نظير لكثير منها فيما زاروه  
من حدائق الحيوان في بلاد الغرب فما إن تملت أعينهم بمجالي الجمال والغرابة فيما شاهدوه  
من أسود ونمور ودية تنزى في قضبانها وفيلة روضت لتكون مركباً للأطفال وقردة



## أجزاء السفر في العصور الإسلامية

للاستاذ ميخائيل عواد - بغداد

١ - تمهيد

من أخطر الأمور التي تهدد كيان بلد ما ، أو مملكة ما ، تسرب الغريباء إليها خلسة ، وتغلغلهم في أعماقها ، واستقصاؤهم خفاياها ، وكشفهم عن أسرارها . فكم من دولة ابتليت بهذا البلاء ، فذهبت نخبة هذا الأمر في العصور القديمة والحديثة . وقد تنهت الحكومات منذ قديم الزمان إلى أضرار مثل هذا الدخول غير المشروع ، فعمدت إلى اتخاذ شيء سمي بـ « الجواز » يحمله من يدخل بلداً أجنبياً . والامر جار اليوم على هذه السنت في كافة بلدان العالم مع الاختلاف في شدة التحذر والתיقظ . و « الجواز » في اللغة هو « سك المسافر ، جمعه أجوزة . يقال : خذوا أجوزتكم أي صكوك المسافرين لئلا يتعرض لكم » (١) . وكنا في أثناء اللطالة قد وقفنا على جملة من الأخبار بصدد هذه الأجوزة في العصور الإسلامية السالفة ، وندنا تقديمها إلى القراء في هذه المقالة .

٢ - صيغة الجواز

شرح ذلك القلقشندي (٢) (للتوفي سنة ٨٢١ للهجرة) في عرض كلامه على السكايات . قال في أوراق الجواز (٣) : « هي المعبر عنه في زماننا بأوراق الطريق . قال في (التقيف) تكون ورقة الطريق في ثلاثة أوصال في قطع العادة (٤) ، يكتب في أعلاها سطر واحد ، صورته : (ورقة طريق على يد فلان بن فلان الفلاني) لا غير . ثم يغلى بيت

(١) تاج العروس ، وأساس البلاغة في مادة (ج وز) .

(٢) صبح الأعشى (٧ : ٢٣١ - ٢٣٣) .

(٣) وصفه للجواز مثل ما كان جارياً في عصر المماليك بمصر .

(٤) قطع العادة : وهو القطع الصغير ، وفي هذا القطع تكتب عامة المسكايات ، مما يكتب به لأرباب السيوف والأقلام على اختلاف مقاديرهم ، وتبين مراتبهم في الرتبة والفضة . أظن صبح الأعشى (٢ : ٤٧٦ و ٤٧٧ : ١٩١) .

العلامة تقدير شبر ويكتب في بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثاني بأربعة أصابع مطبوعة بغير بسمة : (رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني للملكي الفلاني - أعلاه الله تعالى وشرفه وأفضله وصرفه - أن يمكن فلان الفلاني) . وتذكر ألقابه إن كان أميراً ، أو متعباً كبيراً ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة ، أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال (من التوجه إلى جهة قصده والعود ، ويحمل على فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور من مركز إلى مركز على العادة متوجهاً وعائداً) ، فإن كان متميز المقدار كتب : (ويعامل بالإكرام والاحترام ، والرعاية الوافرة الأقسام ، فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ، من غير عدول عنه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه) . قال : وما تقدم من كتابة أنه يمكن من التوجه والعود ، هو فيما إذا كان عائداً ورسمه بتمكينه من العود ، وإلا فيكتب (أن يمكن من التوجه إلى جهة قصده) . فإن كان قد حضر إلى الأبواب وهو عائد ، فالأحسن أن يكتب فيه (أن يمكن من العود إلى جهة قصده) . وكذا (ويعامل بالإكرام والاحترام) لا يكتب إلا لأمر ، أو ذي قدر كبير ، فإن كان غيره كتب بدله (مع الوصية به ورعايته) ونحو ذلك . وإن رسم له بنفقة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : (ويصرف له من النفقة في كل يوم كذا وكذا درهماً) خلا أما كن المرسوم بإيصالها . وذلك أن بالطرقات أما كن لا يصرف فيها شيء الآن ، فيحتاج إلى أن تستثنى ، وكانت قبل ذلك تعين ، وهي : بليس (١) وطفيس (٢) وأربد (٣) وغيرها . ثم كثرت عن التعداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : وما ينبغي عليه هو أن صاحب ورقة الطريق إن كان من محاليل النواب أو رسل أحد من أكابر البلاد ذكر فيه بعد ذكر ما يطبق به من الألقاب : (فلان مملوك فلان أو رسول فلان) وتذكر ألقاب محذومه التي كوتب بها اختصاراً . ولا تذكر نعوته وعلى يد من رسم بنفيه ، كتب : (أن يمكن الأمير فلان الدين فلان من التوجه بحجة فلان البريدي بالأبواب الشرفية أو أحد النقباء بالباب الشريف ليوصله إلى المكان المطلوب) ، ويحمل على كذا وكذا فرساً من خيل البريد المنصور) إن كان قد رسم له شيء من خيل البريد (ويحمل البريدي على كذا من خيل البريد المنصور) أو (ويحمل التقيف على فرس واحد

(١) بليس : « يكسر اليايين وسكون اللام والله وسن ميلة : عندية بيننا وبين قسطنطين مصر عشرة فراسخ على طريق الشام » (سجيم البلدان ١ : ٧٧٣ طبعة بوستلند) .  
(٢) طفيس : من توأحي الأعمال الشرقية بمصر : « كرها بين الخيلان في » (الصفة السنينة بأسماء البلاد المصرية) (ص ٣٦١ و ٣٦٢ سنة ١٨٩٨) . « (٣) أربد : « بالفتح ثم السكون والباء الواحة : قرية بالأردن قريب طبرية » (سجيم البلدان ١ : ٧٨٥) .



من خيل الكراء من ولاية إلى ولاية على العادة في ذلك، ويمكن البريدي إن كان بريدياً، أو النقيب إن كان قنبلاً من العود إلى الباب الشريف) ثم يكمل بنسبة ما تقدم. وإذا فرغ من صورته كتب بعد ذلك (إن شاء الله تعالى)، ثم التاريخ والمستند على العادة».

ثم واصل كلامه بقوله: «قال في (التتيف): والمستند في أوراق الطريق أحد ثلاثة أمور: إما خط كاتب السر<sup>(١)</sup>، وهو الغالب، أو رسالة الدوادار<sup>(٢)</sup>، وهو كثير أيضاً، أو إشارة نائب السلطان<sup>(٣)</sup> إن كان ثم نائب، وهو نادر. فإن كان بخط كاتب السر، كتب على الهامش من الجانب الأيمن سطر واحد يكون آخره يقابل السطر الأول الذي هو رسم بالأمر الشريف. وهو (حسب المرسوم الشريف). وكذا إن كان بإشارة النائب، كتب سطران على الهامش المذكور آخرهما يقابل أول السطر الأول (بالإشارة العالية) ... قال: وفي هاتين لا يكتب في ذيلهما بعد التاريخ سوى الحسيلة لا غير. وإن كان رسالة الدوادار، كتب على الهامش (حسب المرسوم الشريف) فقط، وكتب تحت التاريخ سطران هما: (رسالة المجلس العالي الأميري الفلاني فلان

(١) كاتب السر: أفاض الفقهندي الكلام على هذه الرتبة (صبح الأعشى ١: ١٠٦ - ١١٠ و ٥: ٤٦٤ و ١١: ٢٩٤ - ٣١٦ و ١٢: ١٨٨ - ١٩٠) فما قاله: «كاتب السر، وهو صاحب ديوان الإنشاء، ووظيفته قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسم وروداً وصدوراً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل».

«أما رتبة محله وشرف قدره، فأرفع محل وأشرف قدر، يكاد أن لا يكون عند الملك أحسن منه ولا أكرم لمجالسته، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن، مقدماً عليهم على ما عده، يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، وإطلاعونه على ما لم يطلع عليه أحسن الأخصاء من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبة هذا محله».

(٢) الدوادار: قال الفقهندي (صبح الأعشى ٥: ٤٦٢، وانظر أيضاً ٤: ١٩): «هو لقب على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيره، ويتولى أمرها مع ما ينضم إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال، وهو مركب من لفظين، أحدهما عربي وهو الدواة، والمراد التي يكتب منها، والثاني فارسي وهو دار، ومعناه مكتب، ويكون المعنى (مكتب الدواة)».

(٣) نائب السلطان: عرفه الفقهندي بقوله (صبح الأعشى ٥: ٤٥٣، وراجع أيضاً ٤: ١٦ - ١٨): «هو لقب على القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها ... ويطلق هذا اللقب في العرف العام على كل نائب عن السلطان أو غيره بمحضته أو خارجاً عنها في قرب أو بعد، إلا أن النائب عن السلطان بالمحضرة يوصف في عرف الكتاب بالكافل؛ فيقال (النائب الكافل) وفي حالة الإضافة (كافل الممالك الإسلامية)».

الدوادار المنصوري أدام الله تعالى نعمته)، ثم الحسيلة».

### ٣ - متولي الجواز

وقفنا على خبر شخص عراقي واحد ممن تولى أمر الأجوزة في بغداد، ذكره ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) في جملة من توفي من الأعيان في سنة ٦٠٣ للهجرة. قال: يوسف بن القاني حاجب السور، متولي الجواز، توفي في عاشر المحرم وكان مشكوراً<sup>(١)</sup>.

### ٤ - متى اتخذت الأجوزة في ديار المشرق

يظهر من سياق الروايات التاريخية أن أجوزة السفر لم تكن متخذة في المائة الثانية<sup>(٢)</sup> للهجرة في ديار المشرق. وأصح نبأ في هذا الشأن ما ورد في ترجمة المؤمل ابن أميل بن أسيد الحاربي، وهو شاعر كوفي من مخضري شعراء الدولتين الأموية والعباسية، وكانت شهرته في العباسية أكثر. روى أبو الفرج الأصفهاني «... قال: حدثني المؤمل، قال: قدمت على المهدي وهو بالري، وهو إذ ذاك ولي عهد، فامتدحته بأبيات، فأمر لي بعشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى أبي جعفر المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن الأمير المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب إليه بعزله ويلومه ويقول له: إنما ينبغي أن تعطي بعد أن يقيم بيابك سنة: أربعة آلاف درهم، وكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه بالشاعر، فطلب ولم يقدر عليه، وكتب إلى أبي جعفر أنه قد توجه مدينة السلام، فأجلس قائداً من قواده على جسر النهر وان أمره أن يتصفح الناس رجلاً رجلاً، فجعل لا يمر به قافلة إلا تصفح من فيها. ومرت به القافلة التي فيها المؤمل، فتصفحهم، فلما سأله من أنت؟ قال: أنا المؤمل بن أميل الحاربي الشاعر أحد زوار الأمير المهدي، فقال: إياك طلبت. قال المؤمل: فكاد قلبي أن ينصدع خوفاً من أبي جعفر، فقبض عليّ وأسلمني إلى الربيع، فأدخلني إلى أبي جعفر، وقال له: هذا الشاعر الذي أخذ من المهدي عشرين ألفاً قد ظفرنا به، فقال: أدخلوه إليّ، فأدخلت إليه ....»<sup>(٣)</sup>

(١) الجامع المختصر (٩: ٢٠٧): بتحقيق الدكتور مصطفى جواد، بغداد: سنة ١٩٣٤.

(٢) أما في أيام الجاهلية، فقد وصل إلينا بعض الأنباء وهي تخبر بوجود شيء له صلة بالأجوزة عرف يوم ذاك بـ «الأذن بدخول البلد»، انظر ذلك في كتاب «الإكليل» للهمداني: (٨: ٣٣، ٣٤، ٣٥؛ طبعة الأب أنستاس ماري السكرملي، بغداد سنة ١٩٣١).

(٣) الأغاني (١٩: ١٤٧؛ طبعة الساسي).



وأنت راء في هذا الخبر عمر الطريقة في الوقوف على الشخص المطلوب ، فلو كان أمر الأجوزة جارياً لما عمدوا إلى هذا العمل الشاق .

والظاهر أن الحال درج حتى النصف الأول من المائة الثالثة للهجرة . فإن أحد الرحالين (١) المسلمين يحب من وجود أجوزة السفر في بلاد الصين ، واعتبره شيئاً جديداً غريباً لا عهد له به (٢) .

فما رواء في هذا الشأن أن « من أراد سفراً من بعضها إلى بعض ( أي من مدينة في الصين إلى مدينة أخرى ) ، أخذ كتابين من الملك ومن الحصي . أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه ، وكم عمره وعمر من معه ، ومن أي قبيلة هو . وجميع من يبلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به . وأما كتاب الحصي فبالمال وما معه من المتاع ، وذلك لأن في طريقهم مشايخ ينظرون في الكتابين ، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا : ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا ، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعاً . فمتى ما ذهب منه شيء أو مات علم كيف ذهب ، ورُدَّ عليه أو على ورثته من بعده (٣) » .

##### ٥ - أجوزة السفر في بلدان الشام والأطراف

انتهت إلينا بعض الأنباء عن الأجوزة في ديار الإسلام في النصف الثاني من المائة الثالثة للهجرة . ومن أفصح ما ورد في هذا الصدد الخبر الذي جاء في سيرة المعتضد بالله الخليفة العباسي ( ٢٤٢ - ٢٨٩ هـ ) ، وكان شهماً عاقلاً ظاهر الجبروت ، ولي الدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الأموال ، وضبطت الثغور .

حكى القاضي المحسن التنوخي ( المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ) قال : « حدثني أبي عن أبي محمد بن حمدون (٤) ، قال : كنت بحضرة المعتضد ليلة على شرب ، إذ جاءه كتاب

(١) سلسلة التواريخ ، من تصنيف سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي ، من أبناء المائة الثالثة للهجرة ( ٢ : ٤٢ - ٤٣ ؛ طبعة رينو ، باريس ١٨١١ ) .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لمتز ( ٢ : ٢٣٤ - ٢٣٥ ) .

(٣) سلسلة التواريخ ( ٢ : ٤٢ - ٤٣ ) .

(٤) كان نديم المعتضد بالله وخاصته ، ومن يأنس به في خلواته .

فقرأه وقطع الشرب وتنفض به ، واستدعى عبيد الله بن سليمان (١) ، فأحضر للوقت ، وقد كاد يتلف وظن أنه قد قبض عليه ، فرمى بالكتاب إليه فإذا هو كتاب صاحب خبر السر يقزوين إليه يقول : إن رجلاً من الديلم وجد بقزوين وقد دخلها متكرراً . فقال لعبيد الله ، اكتب الساعة إلى صاحبي الحرب والخراج وأقم قيامتهما وتهديهما عني بالقتل لم تم هذا ؟ وتشدد في الإنكار ، وطالبهما بتحصيل الرجل ولو من تخوم الديلم ، وأعلمهما أن دمهما مرتين به حتى يحضرا به ، وارسم لهما أن لا يدخل البلد مستأنفاً أحد ولا يخرج إلا بجواز ، حتى لا يتم حيلة لأحد من الديلم في الدخول سراً ، وأن يزيدا في الحرس والنيقظ ، ونفذنا الناس إليهم ، وأفرط في التأكيد . فقال عبيد الله : السمع والطاعة ، أمضي إلى داري وأكتب . فقال : لا ، اجلس بمكانك واكتب بخطك واعرض علي . قال : فأجلسه وعقله ذاهل ، فكتب ذلك وعرض عليه ، فلما ارتضاه دعا بخريطة (٢) إلى حضرته فجعلت الكتب فيها وأنفذها ، وقال لعبيد الله : أنفذ معها من يأتيك بخبر وصولها النهروان ، وسيرها عنه وانصرف . فنهض عبيد الله ودعا المعتضد إلى مجلس شربه وكأنه قد لحقه تعب عظيم ، فاستلقى ساعة ثم عاد يشرب . فقلت له : يا أمير المؤمنين تأذن في الكلام ؟ فقال : نعم . فقلت : كنت على سرور طيب ، فورد خبر قد كان يجوز أن تأمر فيه غداً بما أمرت به الساعة ، فضيقت صدرك وقطعت شربك ، ونصت على نفسك ، وروعت وزيرك وأطرت عقول عياله وأصحابه باستدعائه في هذا

(١) عبيد الله بن سليمان بن وهب بن سعيد ، وزير المعتضد والمعتضد . قال ابن الطقطقي ( الفخري في الآداب السلطانية ص ٣٠١ - ٣٠٢ ؛ طبعة أهلوت ) : « كان عبيد الله من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلاً ، مات في سنة ثمان ومائتين » . وقال في مواطن أخرى ( الفخري ٢٩٢ - ٢٩٦ ) : « وكان بنو وهب من رؤساء الناس وحذاقهم وفلاستهم وكرمائهم . وكانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة ، والآداب في زمانهم قائم المواسم ، والسكرم واضح المعالم ، وكانوا نصارى ثم أسلموا وخدموا في الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت » .

(٢) خريطة : جمعها خرائط ، وهي على ما في معاجم اللغة ( مادة خ ر ط ) : « وعاء من آدم وغيره يصرح على ما فيه . وقد أخط الخريطة إذا أخرجها . وقال الليث في كتاب العين : الخريطة مثل الكيس مخرج ، من آدم أو خرق [ أو ليف هندي أو خيش ] ويتخذ ما شبه به لكتب العمال فيبيع بها » . والمكلف أمر الخرائط ، يسمى « صاحب الخريطة » ، كما كان للخرائط ديوان خاص ، يسمى « ديوان الخرائط » ، وكانت الخرائط في بعض الأحيان تربط بالمناطق وتشدد على الأوساط ، وكانت تخلف بحلقات وتنفذ إلى أصحابها . ومن أصناف الخرائط : خرائط السكر ، وخرائط المسال ، وخرائط الموكب ، وخرائط خرسانية ، وخرائط بندقية ، وخرائط سود وخرائط صفر وغيرها .



الوقت المنكر حتى أمرته بهذا الذي لو أخرته إلى غد لكان جائزاً. فقال : يا ابن حمدون ليست من مسائلك ، ولكننا أذننا لك في الكلام . إن الديلم شرأمة في الدنيا وأعمهم مكرراً وأشدهم بأساً وأقوامهم قلوباً ، ووالله لقد طار عقلي فزعاً على الدولة من أن يتطرق إليهم دخول قزوين سرّاً ، فيجتمع فيها منهم عدة يوقعون بمن فيها ويهلكونها وهي الثغر بيتنا وبينهم ، فيطول ارتجاعها منهم ، ويلحق الملك من الضعف والوهن بذلك أمر عظيم يكون سبباً لبطلان الدولة . وتخيلت أنني إن أمسكت عن التدبير ساعة أن يفوت ، وأنهم يخيؤون على قزوين . ووالله لو ملكوها لنبغوا علي من تحت سريري هذا ، واحتوا على دار الملكة ، فما هنأني الشرب ولا طابت نفسي بمضي ساعة من زماني فارغة من تدبير عليهم ، فعملت ما رأيت » . (١)

ومن أخبار الأجوزة في هاتيك الديار ، أن السلطان عضد الدولة البويهبي (المتوفى سنة ٣٧٢ هـ) ، أحدث في المائة الرابعة للهجرة — لأول مرة نظام مراقبة الأبواب في مدينة شيراز عاصمة بلاده ، حتى قال البشاري في حقها « . . . ومنع الخارج منه إلا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز . . . » (٢)

وكانت سنة سبعة للهجرة مشحونة بالأحداث الجسام ، ففي « مستهل صفر » من هذه السنة [ ، وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام ، وأنهم عازمون على دخول مصر فاتزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم ، وطاشت عقولهم وألباهم ، وشرع الناس في الحرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون النبعة ، فبلغت الحجارة إلى مصر خمسمائة ، وبيع الجمل بألف ، والجار بمائة . وبيع الأمتعة والخياب والمغلات بأرخص الأثمان . وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع ، وحرص الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الإسراع في القرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم ، وأن ما ينفق في أجرة الحرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيراً ، وأوجب جهاد التتر حتماً في هذه الكرة ، وتابع المجالس في ذلك ، ونودي في البلاد . لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة ، فتوقف الناس عن السير وسكن جاشهم . . . » (٣)

(١) نضوار المحاضرة ( ١ : ١٥٤ - ١٥٥ ) .

(٢) أحسن التقاسيم ( ص ٤٢٩ ؛ طبعة دي خويه في لندن ) .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ( ١٤ : ١٤ ) .

## ٦ - أجوزة السفر في الديار المصرية

كان بمصر منذ أول العصر الإسلامي ، نظام دقيق للأجوزة المتخذة للانتقال الداخلي من مدينة إلى أخرى في الديار المصرية .

وقد وقفنا على جوازين داخليين ، كتبنا بالعربية على ورق البردي ، يرتقي تاريخهما إلى أوائل المائة الثانية للهجرة ، كتبهما بعض عمال الأمير عبيد الله بن الحبحاب (١) حين إمارته على مصر .

ويعتبر الجواز الأول منهما خروم كثيرة ، لتقدم عهده ولتأثير عوامل التلف الأخرى عليه ، إلا أن المستشرق « جرهمان » توصل بالبحث والاستنتاج إلى ملء بعض ما ذهب من ألفاظ النص الأصلي . وهذا نص الجواز بحسب قراءة « جرهمان » (٢) له ( أنظر صورته ) :

١ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ هذا كتب من فلان بن فلان عامل الأمير عبيد الله بن الحبحاب على أعلا

٣ اشمون لشنوده بن

٤ مداهره القمر ؟ من أهل مدينة اشمون

٥ اني أذنت لك عطط ماس الصمد واسم ١١ .

٦ لوفاجزيت ومعيشته واجلته خمسة اشهر

٧ من مستهل شعبان سنة ثلث ومئة الى انسلخ

٨ ذي الحجة من سنة ثلث ومئة وطع

٩ . فمن لقيه بعد الاجل الذي اجلته

١٠ فليسده الى مدينة والسلم على من اتبع الهدى

١١ وكتب سعيد في شعبان سنة ثلث ومئة

(١) عبيد الله بن الحبحاب ، خلف حيان بن شريح على إدارة المال في مصر منذ سنة ١٠٢٠ إلى ١١٦ للهجرة . وتلقبه بلقب « أمير » يدل بوضوح على أنه لم يكن متولي خراج مصر وحسب ، بل كان حاكماً عليها . راجع : Adolf Grohmann , Arabic Papyri in The Egyptian Library. (Cairo, 1938 Vol. III. P. 123. ) .

(٢) المرجع السابق الذكر ( ص ١١٨ ) .



الله و

أما الجواز الآخر، فإن ما أصابه من تلف كان أقل من سالفه . ولعل أدل ما ورد فيه في هذا الباب ما كان يتميز به حامله من علامات فارقة في جسمه . وإليك نصه نقلاً عن « جرهمان » أيضاً .<sup>(١)</sup>

- ١ بسم الله الرحمن الرحيم
- ٢ هذا كتاب من عبد الله بن عبيد الله عامل
- ٣ الأمير عبيد الله بن الحجاب على أعلا اشمون
- ٤ لقسطنطين بيسطلس شاب ابط بخذه أثر وبعثه خالين
- ٥ سبط من أهل بستانون باعه من اعلى اشمون انى
- ٦ اذنت له أن يعمل باسفل اشمون لوفاً جزيته
- ٧ والتماس معيشته واجلته شهرين من مستهل ذي الحجة
- ٨ الى النسلخ المحرم سنة ست عشرة ومائة فمن لقيه
- ٩ من عمال الأمير أو غيرهم فلا يعترض له في ذلك
- ١٠ من الاجل الا بخير والسلم على من اتبع الهدى
- ١١ وكتب طليق في مستهل ذي الحجة تمام سنة
- ١٢ اثنتى عشرة ومائة

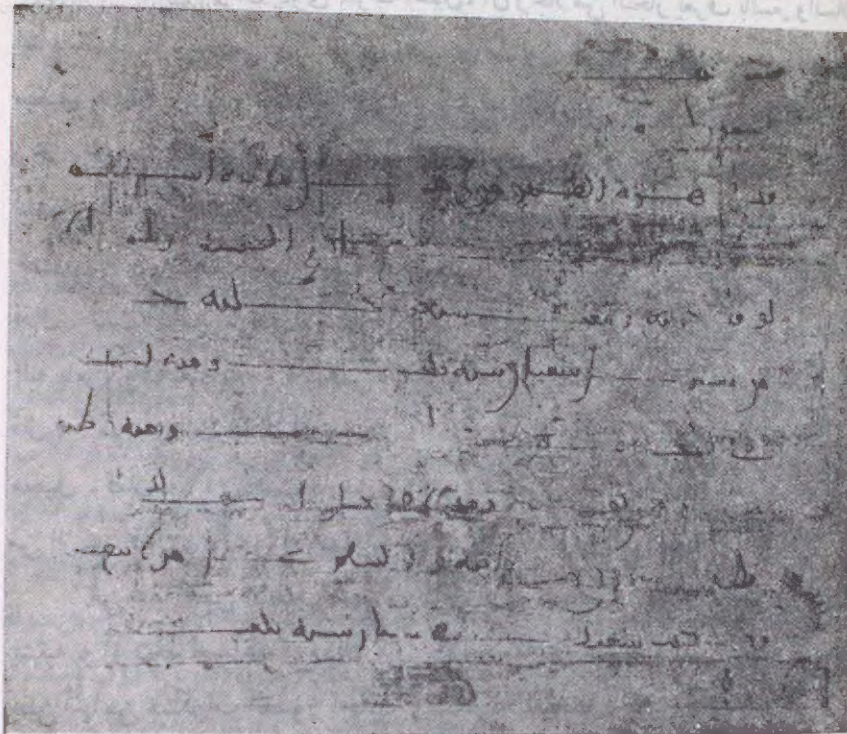
الله و

عبد الله

وكان بنو طولون يبالغون في العناية بهذا الأمر ، فلا يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهدهم إلا بجواز<sup>(٢)</sup> .

وقد وقفنا على جملة نصوص وأخبار في ذكر الأجوزة بالديار المصرية ، وكلها ترتقي إلى أواخر المائة الثالثة للهجرة ، رواها أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي<sup>(٣)</sup> في سيرة أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية والثغور (المتوفى سنة ٥٢٧ هـ)

- (١) المرجع السابق الذكر (ص ١٢٠ - ١٢١) .
- (٢) المغرب في حل المغرب لابن سعيد (ص ٥٢ ؛ طبعة فولز ، برلين سنة ١٨٩٤) .
- (٣) ألفه في الثلث الثاني من المائة الرابعة للهجرة . وقد عني بتحقيقه والتعليق عليه محمد كرد علي (دمشق ، سنة ١٩٣٩) .



قال البلوي : « . . . فراسله<sup>(١)</sup> في أن يكتب له جوازاً ليخرج عن البلد ، فتغنم ذلك أحمد بن طولون منه ، ليربح قلبه منه ومن دالته عليه ، فكتب له الجواز<sup>(٢)</sup> . وقال في موطن آخر : « وأنفذ ( أحمد بن طولون )<sup>(٣)</sup> معه من يشيعه ، وكتب له جوازاً وكتباً إلى سائر أعماله ، يأمر أصحابه بها بتلقيه وتشيعه وخدمته . . . »<sup>(٤)</sup> . وقال في نأ آخر : « فلما علم عيسى ( بن يارجوخ ) أنه ( أن أحمد بن طولون ) قد علم بمقالاته فيه<sup>(٥)</sup> ، سأله أن يطلقه إلى طرسوس خوفاً منه وحياء من خطئه عليه ، ففعل ووصله بمال جزيل ، وكتب له جوازاً . . . »<sup>(٦)</sup> . ومن أطرف ما ورد في هذه السيرة من أخبار الأجوزة وصفاتها ، قوله :

- (١) الكلام على موسى بن طولون حينما راسل أخاه أحمد بن طولون .
- (٢) سيرة أحمد بن طولون (ص ٤٩) .
- (٣) أي مع القطان الطالقاني ، الذي بعث به الموفق إلى القاهرة ليتجسس له أخبار ابن طولون .
- (٤) سيرة أحمد بن طولون (ص ١٣٨) .
- (٥) أي ما قاله عيسى بن يارجوخ في تفبيح أحمد بن طولون .
- (٦) سيرة أحمد بن طولون (ص ١٥٤) .



« وحدثت العجيب وكان يتولى شرطة أسفل، أن رجلاً من التجار يعرف بالستر والسلامة ابتاع خادماً مما يبيع من تركة وكيل أحمد بن طولون الذي قبض عليه، المعروف بأبن مفضل، بمائتي دينار، وأنه أخذ جوازاً وخرج بالغلام إلى الشام، يؤمل في بيعه هناك ربحاً، فلما بلغ العريش، وكان بها وال يعرف بحبيب المعري قد نصبه أحمد بن طولون ليتأمل ما يرد من الكتب ونفيس الأمتعة إلى القسطنطينية، فقرأ الجواز، وقال: قد كان يجب أن يحكى في هذا الجواز حلية هذا الخادم. فقال الرجل: أنا اشتريته من الواسطي فقال: لست أطلقه إلا بعد الاستئذان<sup>(١)</sup> فيه. وكتب إلى أحمد بن طولون يخبره، فكتب إليه يأمره بإشخاصه إليه، فأشخص التاجر والغلام. فلما وافى وأدخل مع الغلام إليه، قال له: من أين لك هذا الخادم؟ قال: ابتعته من الواسطي كاتبك مما باعه من تركة ابن مفضل. فقال له: أين كنت عازماً به؟ قال: أستقري به البلدان حتى أجد فيه ما أؤمله من الربح. فقال: اكتبوا له جوازاً وحلوا فيه الخادم، وأطلقوا سبيله<sup>(٢)</sup> ».

فمن هذا النص الأخير يتضح أن «الجواز» كان يتضمن صفة الشخص وهيئته لئلا يشبه به أو يتخذ لغير أهله، وذلك يدل دلالة لامعة على عناية أولئك الأقدمين بأمور يظن أنها من مبتكرات العصور الحديثة ومستنبطات المدنية الحديثة<sup>(٣)</sup>.

## مفاتيح عماد

(١) أي بعد المشاورة. (٢) سيرة أحمد بن طولون (ص ٢١٨ - ٢١٩). (٣) وإذا كان ما كتبه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران (ص ٦٠ القاهرة ١٩٠٣) من أنباء وأخبار، بعضها الخيال، فإننا نرى أنها لم تكن إلا صدقاً للوقائع والحقائق والآراء التي كانت تدور في خلد فيلسوف المعرة. ومن ذلك إشارته إلى ضرب فريد من «الأجوزة» لم يكن متخذاً بين ممالك الأرض وبلدانها بالنحو الذي وصفناه في هذا المقال، بل هي أجوزة ظريفة طريفة، نعتي بها «أجوزة الدخول إلى الجنة». وقد اتخذ المتولي عليها مجلسه بباب الجنة، يمرر الأجوزة لمن رام دخولها من المستحقين وإليك كلام أبي العلاء في ذلك: «... فلما صرت إلى باب الجنة قال لي رضوان: هل معك من جواز؟ قلت: لا. فقال: لا سبيل إلى الدخول إلا به، فبعت بالأمر. وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف، فقلت: أعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع إلى الموقف فأخذ عليها جوازاً. فقال: لا أخرج شيئاً من الجنة إلا بإذن من العلي الأعلى قدس وتبارك...».

غير أن الفيلسوف الألماني «كنت» كان أكثر الفلاسفة عناية بمسألة السلم، وله آراء غاية في الطرافة في مسائل الحقوق الدولية وفي فلسفة التاريخ. وهو واضع الاصطلاح الألماني (Volkerbund) الذي أطلق بعد وفاته بنحو قرن وربع قرن على «عصبة الأمم» الحديثة، وواضع مشروع مشهور خطير نشره سنة ١٧٩٥ بعنوان: «مشروع للسلم الدائم» أعلن فيه أن إنشاء «حلف بين الشعوب» هو السبيل الوحيد للقضاء على شرور الحرب وويلاتها. على أننا إذا رجعنا إلى أقوال «كنت» قبل «المشروع» وجدناه قد صرح بتصريحات كثيرة عما للحرب من أثر حضاري في التاريخ. وإذا كان قد أعلن في كتابه «فروض عن بداية تاريخ الإنسانية» (سنة ١٧٨٦) بأن «أكبر شر يصيب الشعوب المتقدمة ناشئ عن الحرب، لا بمعنى الحرب الحاضرة أو الماضية، بل بمعنى دوام الاستعداد للحرب القادمة» فقد سلم مع ذلك بأن الخوف من الحرب قد يكون في طور بسيط من أطوار المدنية من أمثلي الضمانات لصون الحرية ودفع

\* نكتفي هنا بهذه الإشارة عن الفارابي. ويحمد الفارابي بعض الإيضاح لهذه الفكرة في مقال الأستاذ أحمد خاكي (مجلة «الكتاب» نوفمبر سنة ١٩٤٥ ص ٣٩) وفي فصل عقدناه عن الفارابي في كتابنا: «شخصيات ومذاهب فلسفية» ص ٥٨ وما بعدها.

## السلم الدائمة في نظر كنت

الدكتور عثمان أمين مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

فكرة السلم فكرة قديمة، اتجه إليها حكماء العصور القديمة، وحمل لواءها الفلاسفة الرواقيون، منذ القرن الثالث قبل الميلاد، حين أهابوا بالإنسانية أن تحرر نفسها مما يفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان من فروق اللغات والأديان والأوطان، ونظروا إلى الناس جميعاً كأنهم أسرة واحدة، قانونها العقل ودستورها الأخلاق. وإلى هذه الفكرة أيضاً دعا الفارابي فيلسوف الإسلام، منذ القرن العاشر الميلادي، في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة»\*. حتى إذا كان القرن الثامن عشر في أوروبا، وضع «الأب دوسان بير» مشروعاً لإنشاء حلف دائم من جميع الدول المسيحية، القصد منه أن يضمن لكل دولة من الدول المتعاقدة سلامة أرضها، وحماية أوروبا من أي اعتداء جديد تقوم به دول الإسلام.

\*\*\*

غير أن الفيلسوف الألماني «كنت» كان أكثر الفلاسفة عناية بمسألة السلم، وله آراء غاية في الطرافة في مسائل الحقوق الدولية وفي فلسفة التاريخ. وهو واضع الاصطلاح الألماني (Volkerbund) الذي أطلق بعد وفاته بنحو قرن وربع قرن على «عصبة الأمم» الحديثة، وواضع مشروع مشهور خطير نشره سنة ١٧٩٥ بعنوان: «مشروع للسلم الدائم» أعلن فيه أن إنشاء «حلف بين الشعوب» هو السبيل الوحيد للقضاء على شرور الحرب وويلاتها. على أننا إذا رجعنا إلى أقوال «كنت» قبل «المشروع» وجدناه قد صرح بتصريحات كثيرة عما للحرب من أثر حضاري في التاريخ. وإذا كان قد أعلن في كتابه «فروض عن بداية تاريخ الإنسانية» (سنة ١٧٨٦) بأن «أكبر شر يصيب الشعوب المتقدمة ناشئ عن الحرب، لا بمعنى الحرب الحاضرة أو الماضية، بل بمعنى دوام الاستعداد للحرب القادمة» فقد سلم مع ذلك بأن الخوف من الحرب قد يكون في طور بسيط من أطوار المدنية من أمثلي الضمانات لصون الحرية ودفع